مفهوم الزواج في انجلترا زمن أسرة البلانتجنت

الباحث/ أحمد حمدي أبو ضيف زيد

جامعة عين شمس–مصر

تعتبر اسرة البلانتجنت من أطول الأسرات الحاكمة في تاريخ إنجلترا في العصور الوسطى، فقد جاوز فترة حكمها ما يزيد عن قرنين من الزمان. وكان من الطبيعي مع طول هذه الفترة أن يحدث في المجتمع الكثير من التغيرات الفكرية والاجتماعية، ولعل هذا ما يدفع المرء للبحث عن أحد المفاهيم الاجتماعية في إنجلترا في تلك الفترة ومحاولة تحليل مفهوم الزواج من الناحية الدينية والسياسية والادبية وصولاً إلى المفهوم الشعبي الذي يمكن تلمسه بوضوح من خلال القصص الشعبي وسجلات الموتى وسجلات العامة.

لقد تأثرت عقلية رجال الدين الإنجليز بالنصوص الواردة في الكتاب المقدس وكتابات الآباء الأوائل والحراك المجتمعى في إنجلترا، وقد انعكس ذلك من خلال تعدد وتضارب الآراء حول مفهوم وطبيعة الزواج. هذا التنوع والتضارب أعاد إنتاج عددًا من الآراء الدينية التى ترسخت وتطورت في عقلية المجتمع الإنجليزي لتؤثر في النهاية على طبيعة وشكل العلاقة الأسرية في البيت الإنجليزي؛ ويظهر ذلك في رؤية اللاهوتى يوحنا من سالزبورى John of Salisbury – في القرن الثانى عشر– للزوجه بأنها " مثل الشخص القذر... وكالضفدع الأصفر تتلون بالملابس بلون الزعفران لإغراء الرجال". ويرى معاصره رئيس أساقفة روين بطرس من بلويس Peter of Blois " أن الزوجات يكسرن الرجال بعقودهن المغذية بالكره ويدمرن زواجهن ويفسدن حياة الكهنة ". ويرى إيلرد من ريفولxAelred of Rievaulx (المتوفى ١١٦٧م) " أن أجمل ما في الزوجة هو الخبز والطعام الشهى... وعلى الرجال أن يحاولوا الابتعاد عنها ... لأنها لا ترضي الشهوة أبدًا "[(١)]. وتعزو ايف سالزبوري Eve Salisbury هذا الموقف العدائي تجاه الزوجة إلي أن كُتاب الكنيسة الإنجليزية قد تأثروا بآباء الكنيسة الأوائل أمثال ترتوليان Tertullian وأويجن Origen وجيروم Jerome الذين اتخذوا من أسلوب حياة الزهد وانصهار الرغبة الجنسية

[(١)] ولد يوحنا من سالزبوري حوالي عام ١١٢٠م ببلدة سالزبوري، وذهب في عام ١١٣٦م إلى فرنسا ليتلقى تعليمه على يد ابيلارد، وفي عام ١١٥٤م زكاه برنارد من كليرفوه ليدخل في خدمة رئيس الأساقفة ثيوبالد Teobald ثم في خدمة كبير أساقفة كانتربوري توماس بكت Thomas Backet . للمزيد انظر: يوهان هوزينجا، أعلام وأفكار، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، القاهرة ،١٩٩٩ ص١٨٦–١٨٧؛ Bateson,M., *Medieval England 1066-1350* (London, 1905), pp. 193, 232-233 .

داخل التقوى الدينية منهجاً في الحياة[٢]. ويتفق كاراس Karras مع تحليل ايف ويضيف أن رجال الدين الإنجليزي كان ينقصهم التجديد وعدم تكرار العظات المذكوره عند كلاً من جيروم وغيره من آباء الكنيسة الآوائل[٣]. وإن كان ذلك التحليل يبدو منطقيًا من حيث اتفاق المضمون الذي أشارت إليه إيف سالزبوري في دعوتها للزهد وإنكار الرغبة الجنسية وملذات الحياة عموماً، لكن يبدو أن المقصد الحقيقي لغالبية الكُتاب الأوائل أو كُتاب رجال الدين الإنجليز وقتذاك أُستقي من رسالة القديس بولس للأرامل وغير المتزوجين من الرجال الذين دعاهم في حالة عدم الإستطاعة على الصبر بطاعة أوامر الرب بالتنسك أو الرهبنة " فليتزوجوا، لأن الزواج أصلح من التحرق" [٤]. وقد استغل بعض رجال الدين الأحداث الواردة في القصة الرومانسية "حلم كونت أنجو" *La patience de le Comtess d'Anjou* – المكتوبة عام ١١٥٨– حول عشق الملك هنري الثاني لطعام وجمال الملكة إلينور من أكوتين قبل تتويجه، وما صاحب ذلك من أخبار عن العلاقة الشائنة بينهما بالاراضى المقدسة ثم أحداث العصيان الذي ساهمت فيها الملكة عام ١١٧٣[٥]؛ لاستدعاء تلك الفكرة وتسخيرها لتسفيه الزواج، وظهر ذلك جلياً عند عدد من كتاب التاريخ السياسي من رجال الدين في القرن الثانى عشر أمثال وليم من نيوبورج الذي عرض ضمن أحداث عام ١١٩٦م صورة خيانة الزوجة مع شاب من الجيران في مقابل سذاجة الزوج أنكسيوس Anxious الذي تقبل وضع الزنا الذي رآه بعينه لأن دموع زوجته قهرته [٦].

وقد تركت كتابات الوعظ الديني عن الزواج في القرن الثاني عشر أبلغ الأثر في توسع الاستشهاد بنصوص الكتاب المقدس في نفس الاتجاه المعادي للزواج، فمع بدايات القرن الثالث عشر نجد الراهب يوحنا من ويلز John of Wales وحكايات الألفبائية *Alphabet*

---

(٢) Salisbury,E., *The Trials Joys of Marriage* (Michigan, 2002), pp. 5-7.

(٣) Karras,R.M., *Common Women;Prostitution and Sexuality in Medieval England* (Oxford, 1998), pp.103-105.

(٤) الكتاب المقدس، اكو ٧ : ٩.

(٥) تفردت القصة الرومانسية "حلم كونت أنجو" بوصف العلاقة المخزية التي نشأت بين الكونت هنري الثاني والينور من أكوتين عام ١١٥١م، وأفاض كاتبها المغمور في وصف أنواع الطعام من الديوك والإوز والغزلان التي أعدتها الكونتيسة بنفسها حينما كان هنري الثاني يأتي لزيارتها. للمزيد أنظر، جيرالد أوف ويلز، وصف ويلز، منشور توراريخ اسرة البلانتجنت، ترجمة وتحقيق : د. سهيل ذكار، في ، الموسوعة الشامية، جـ ٣٠، (دمشق ، ١٩٩٨)، ص ٣٧٨، أنظر أيضاً ؛ Mead, W.E., *The English Medieval Feast* ,(London ,1931), pp.55-57.

(٦) William of Newburgh, *Historia Rerum Anglicarum*,ed. R.Howlett, Vol. II, RS 82 (London, 1964) pp. 477-482.

of Tales – للكاتب الكنسى المجهول – يعظا بقصص من العهد القديم تتضمن خطايا الأنثى وعلاقتها بالأفعى التى أغوت آدم كما جاء في سفر التكوين(٧). وفي نفس الاتجاه استفاد جامعو قصص "مآثر الرومان *Gesta Romanorum*" في نهاية القرن الثالث عشر من تضمين القصص بعض العظات أو "المفاهيم الأخلاقية Morlitates" المستقاة من سفر صموئيل عن افتتان النبي داود عليه السلام بجسد المرأة، وكذلك المتاعب التي واجهها النبي إبراهيم عليه السلام جراء غيرة زوجته سارة من الجارية المصرية هاجر وابنها(٨). وفي دراسة كاراس لمجلد الراهب الدومينيكاني يوحنا من بروميارد John of Bromyard المكتوب في منتصف القرن الرابع عشر لاحظ أن الـــ ١٣٠٠ قصة والتى تتضمن نحو ١٤% منها شخصيات نسائية، منهن من تعسفن في معاملة أزواجهن كامرأة النبي نوح عليه السلام وأخريات أحاطتهن الأفاعي لأنهن ابتغين المال من وراء معاشرة الأزواج، ولعل النوعية الأخيرة من النساء مستقاة من أغواء الشيطان لسيدنا أدم عن طريق حواء كما جاء في سفر التكوين (٩).

" ليس اثنين بل جسد واحد، فالذي جمعه الله لا يفرقه إنسان" (١٠). هذا ما وعظ به وبشر الكثير من القساوسة عند إتمام مراسم الزواج، فعلى الرغم من أن الفكر الديني الإنجليزي انصب كلية لتأييد فكرة القديس بولس، إلا أن ذلك لم يمنع من ظهور اتجاه مضاد يدعو في الأساس إلى التوحد أو الزواج الروحى، سواء أكان ذلك بين السيد المسيح والكهنة أم بين الرجل والمرأة، وقد ترددت أصداء تلك الفكرة في خطب ومواعظ القديس برنارد التي حث فيها الكهنة والقساوسة على الزهد وطاعة رؤساء الأديرة والكنائس كما جاء في خطبته للكاهن آدم عام ١١٢٦(١١).وقد تفهم المعاصرون واللاحقون المقصد البرناردي، ولكن استخدموه بعدة أوجه تتماشى مع ونص الكتاب المقدس، ففي عام ١١٧٣م وأثناء تمرد أبناء الملك هنري الثاني ضد الأخير أرسل كبير أساقفة روين ***Rouen*** إلى الملكة الينور يستحث

---

(٧) Karras, *Common Women*, pp.103-107.

(٨) Salisbury, *Trials*, pp. 22-27.

(٩) Karras, *Common Women*, pp. 107-109.

(١٠) الكتاب المقدس ، متى ١٩ : ٦

(١١) ذكر القديس بولس في رسالته الاولى إلى اهل كورنثوس وهو يعظ غير المتزوجين والأرامل"، "ولكن إن لم يضبطوا أنفسهم، فليتزوجوا، لان التزوج أصلح من التحرق" للمزيد انظر : St. Bernard, Abbot of Clairvaux, *Great Letters Writers*, tr. J. Mabillon.ed. S.J. Eales, (London, 1904), p.5.

فيها عاطفة الإيمان بقدسية الزواج الروحي أن تكف عن مساندة أبنائها(١٢). وقد تشرب جيوفري من فنسوف Geoffrey of Vinsauf بذلك المعنى وكتب يمجد الزوجة التي سألت زوجها برباط الزوجية المقدس أن يدفنها في البقعة التي سقطت فيها وهي تحفر الخندق عام ١١٩٠م وقت حصار عكا (١٣). وفي عام ١٢١٥م اتفق المشاركون في مجمع اللاتيران الرابع Lateran IV على ضرورة أن يعزز كهنة الإبريشيات من مفهوم الإيمان بالزواج الروحي وفقاً لما جاء بسفر التكوين ووصايا السيد المسيح بإنجيل متى(١٤). وفي نفس الفترة تقريباً كتب جيرالد من ويلز – رئيس شمامسة بريكتون – ينتقد عرف الزواج السائد في ويلز وحدد مهمة الزوجة بكونها "مدبرة المنزل *Focaria* " لأنها الرفيقة الأبدية في الحياة المنزلية(١٥)، وبناءً على هذا الفهم العميق والإدراك الشامل لقيمة الزواج المقدس طالب كهنة الإبرشيات عام ١٢٨١م بالوعظ بالإنجليزية لدرء مخاطر تعددية الزواج التي بدأت تنتشر آنذاك(١٦). وفي نفس الاتجاه أصدرت كنيسة القديس بولس قانونا لترسيخ ذلك المبدأ الإيماني عام ١٢٩٠م يقضي بالمساواة بين " المواطنين *Native* وأنصاف المواطنين أو المحررين من القنية *Nati*" عن طريق السماح بالتزاوج بينهم لتعزيز روابط الاتحاد بين الطبقتين(١٧).

---

(١٢) Betri Blesensis, "Epistola, CLIV, A.D. Reginam Anglorum A.D. 1137" in: *Betri Blesensis, Bathoniesis Archidiacom Opera Omnia Nunc Prrimum in Anglia* , ed . I.A.Giles, Vol. II .Epistolae (London, 1848), pp . 93-95.

(١٣) Geoffrey de Vinsauf , Richard of Holy Trinity, Itinerary of Richard I and others to the Holy Land (Cambridge , 2001), p.66 ؛ الحرب الصليبية الثالثة ، جـ ١ ، القاهرة،٢٠٠ ص ١٣٧.

(١٤) دعى غالبية المجتمعين من كبار رجال الدين في مجمع لاتيران عام ١٢١٥م إلى ضرورة مناقشة الأفكار والمشاكل الناجمة عن الفقر والجهل، ويأتى على رأسها المسائل المتعلقة بالأحوال الشخصية مثل تعدد الزواج وكثرة الطلاق. وقد رأى البابا أنوسنت الثالث (١١٩٨–١٢١٦م) ضرورة وضع قانون يكفل عدم تكرار تلك الأمور وغيرها. وفي الوقت نفسه اتفق المجتمعون على ضرورة العودة إلى الآيات المقدسة التى تعزز من الرباط الروحى في الزواج وتضمن طاعة الزوجة لزوجها كما ورد في سفر التكوين "ولذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامراته ويكونان جسداً واحداً"، وكما ايضاً في إنجيل متى "إذا ليس بعد اثنين بل جسد واحد. فالذي جمعه الله لا يفرقه إنسان" للمزيد أنظر : الكتاب المقدس ، التكوين ٢ : ٢٥؛ متى ١٩ : ٦. انظر ايضاً، Karras, *Common Women*, p. 104.

(١٥) Bateson, *Medieva*l *England*, p.231; Stacey, R.C., "Divorce Medieval Style", *Sp* 77/ 4, (2002), pp. 1122-1124.

(١٦) Karras, *Common Women*, pp. 104-107.

(١٧) Bateson, *Medieval England*, p.389.

وبالوصول إلى منتصف القرن الرابع عشر نجد يوحنا ويكلف يضع تفسيراً جديداً لآية القديس بولس (١ كو ٧ : ٩) حيث رأى أن الزواج خُصص لأجل غاية النسل وكإجراء وقائي ضد الزنا وعلى الطرفين (الزوج والزوجة) إدراك كونهما شخصًا واحدًا وعليهما الحفاظ على طهارة الرباط المقدس في الزواج [١٨].

وتذكر إيلين بور أن فكرة خضوع المرأة حازت على رضا عموم الناس وعلى أساسها إلى جانب طاعتهن العمياء صيغت المفاهيم عن المثل الأعلى للزواج[١٩]. وكاتجاه ثالث للمفهوم الديني للزواج نجد أن رجال الكنيسة الإنجليز استخدموا أسلوب النصح والإرشاد كوسيلة للإصلاح وتأليف القلوب بين الأزواج استنادًا إلى ما جاء على لسان القديس بولس بقوله : "أما رأس المرأة فهو الرجل"[٢٠]. وعلى أساس هذه الفكرة كتب القديس برنارد ناصحا الزوجات بتفهم قدسية طاعتهن لأوامر أزواجهن. وفسر قانون الراهبات في القرن التالي مظهر وشكل تلك التبعية بناءً على الواقع العملي بأن "الزوج يراقب زوجته في تنفيذ تعليماته ليحمل لها الرضا في قلبه بكل سعادة" [٢١]. وفي نفس القرن راحت الشخصيات الدينية الواردة في قصص "مآثر الرومان" تحث الفتيات على ضرورة طاعة أزوجهن والخضوع لهم وتجنب الغضب والرذيلة وسوء السمعة والحرص على اكتساب مهارات إدارة حاشية وأهل المنزل[٢٢].

وكاتجاه ثان لأسلوب النصح –وكاتجاه رابع يضاف للمفهوم الديني للزواج– كتب الراهب روبرت ريبون من دورهام Robert Rypon of Durham في القرن الرابع عشر – وفي سبيل استقامة الحياة الأسرية– تحذيرًا وجهه ضد رغبات الأزواج والرجال عامة الذين دنسوا العذروات والراهبات برغباتهم البهيمية، ووجه نيكولاس بوزون Nicolas Bozon إدانة قاسية الزوج اليهودي الذكي الذي أغوى الزوجات وفتن العذارى. وفي أسلوب غلب عليه النصح والإرشاد جمع يوحنا من بروميارد في كتابه "مجموعة الأوامر *Summa Praedicantium*" عددً من الأوامر جاءت على لسان أزواج عصره المتدينين الذين عانوا

---

(١٨) Salisbury, *Trials*, pp. 26-30.

(١٩) أيلين بور، "مركز المرأة في العصور الوسطى"، ترجمة عبد الحميد حمدي ؛ ومحمد مصطفى زيادة ؛ منشور في تراث العصور الوسطى ، إعداد. ج. كرامب و إ. جاكوب، جـ ٢ ، (القاهرة ، ١٩٦٧)، ص٥٦٨.

(٢٠) الكتاب المقدس، ١ كو ١١: ٣.

(٢١) Dusel, S .J., "The Bride of Christ Image in the Ancren Riwle", in: *Sovereign Lady*, ed. M. Whitaker (London,1995), pp. 121-124.

(٢٢) Salisbury, *Trials*, pp. 16-20.

من افتتان الزوجات بالملبس والزينة تاركات أزواجهم يمضون أوقاتهم في الفسق والفجور[٢٣]. وفي توجه مماثل وجه يوحنا وي

كلف – في نفس الفترة – رسالته إلى الأزواج المسيحيين محددًا نموذج الزواج المسيحي الذي يجب أن ينصب في قالب الزواج الروحي الممثل في زواج العذراء مريم بيوسف النجار، والذي اتفقا فيه على الصلاح والصبر والطاعة. كما ركز ويكلف على أهمية الهيراركية داخل المنزل وراح يذُكر الزوجات بالخضوع لأزواجهن والعمل على ضبط سلوك أطفالهن، ونصح الأزواج بأن يحبوا زوجاتهم وأن يقفوا إلى جانبهن في الضراء قبل السراء "بدون الحاجة لذكر سبب"[٢٤] .

وبشكل عام فالمفهوم الديني تميز بالعقلانية عند تناول مفهوم الزواج، ومع أن الاتجاه الأول ابتعد عن ذلك الإطار، لكن طبيعة العصور الوسطى أفرزت دوما آراءً ترفض التعامل مع كل شيء قد يبخس من قدر الحياة الكهنوتية.

لم تعرف الأسر الحاكمة في إنجلترا طوال عهد البلانتجنت مفهومًا للزواج إلا من خلال المنظور السياسي للمصاهرة، والذي وضع أصُوله الملك أوفا Offa حاكم مرسيا Mercia (٧٥٧–٧٩٦م) لربط ولايته بباقي حكام الولايات الإنجليزية ولتوحيد الممالك

---

[٢٣] ينتمى نيكولاس بوزون (١٣٠٠ – ١٣٢٠ م) الى عائلة ويزنجست Wissengsit بنورفولك Norfolk وقد أدخله والديه في سن مبكر الى أحد اديرة شيستير Chester ليصبح راهباً وظل هناك لفترة طويله ثم انتقل الى دير كونى Conewey وقد مكنته دراسته الكهنوتية من تعلم اللاتينية والفرنسية إضافة إلى الإنجليزية التى كان يعظ بها في الدير. وكتب نيكولاس مثل غيره من رجال الدين عدداً من القصص الشعرية والنثرية التى انتقد من خلالها المجتمع الذي يعيش فيه ومن تلك القصص ومنها "الأسد ملكاً *Lion as King*" و"فأر يبحث عن زوجة *Rat Seeking Wife*" و"الشمس تبحث عن زوجة *Sun Seeking Wife*" و"الأسد ورفاقه *Lion and Companions*" و" القرد والطفل *Monkey and Child*". للمزيد أنظر : Bozon, N., *Metaphors of Brother Bozon, A Friar Minor* (London, 1913), p.V- VIII; Harry, P.W., *A Comparative Study of the Aesopic Fable in Nicole Bozon*, Ph.D Thesis (Johns Hopkins University, 1903), p.24; Karras, *Common*, pp. 104-115.

[٢٤] ذكر القديس متى في الكتاب المقدس قصة زواج السيدة العذراء مريم بيوسف النجار: "أما ولادة يسوع المسيح فكانت هكذا : لما كانت مريم أمه مخطوبة ليوسف، قبل أن يجتمعا، وجدت حبلى من الروح القدس. فيوسف رجلها إذ كان باراً، ولم يشأ أن يشهرها، أراد تخليتها سراً. ولكن فيما هو متفكر في هذه الأمور، إذا ملاك الرب قد ظهر له في حلم قائلاً : يا يوسف ابن داود، لا تخف أن تأخذ مريم امرأتك. لأن الذي حُبل به فيها هو من الروح القدس. فستلد ابنًا وتدعو أسمه يسوع. لأنه يخلص شعبه من خطاياهم. وهذا كله كان لكي يتم ما قيل من الرب بالنبي القائل : هو ذا العذراء تحبل وتلد ابنًا، ويدعو اسمه عمانوئيل الذي تفسيره الله معنا. فلما استيقظ يوسف من النوم فعل كما امره ملاك الرب. وأخذ امرأته. ولم يعرفها حتى ولدت ابنها البكر. ودعا اسمه يسوع " للمزيد أنظر: الكتاب المقدس، متى ١ : ١٨ – ٢٥. أنظر أيضاً ، Salisbury, *Trials*, pp. 38-42.

الإنجليزية تحت حكمه[٢٥]. وتابع ملوك تلك الأسرة هذه السياسة على نطاق واسع متخذين منطقة الجنوب الشرقي منطقة نفوذ وراثي، فاختاروا زوجات منهم، وزوجوا بناتهم إليهم[٢٦]. وتفهم حكام وملوك الغرب الأوروبي غاية الحكام الإنجليز، وظهر ذلك في رسالة التأبين المرسلة إلى الملك هنري الثالث من صهره إمبراطور ألمانيا عقب وفاة زوجة الاخير عام ١٢٤١م[٢٧]. ولم يشذ أحدٌ من المعاصرين عن فهم تلك الغاية والهدف الأسمى من توسع حكام إنجلترا في السيطرة على ممالك الغرب الأوربي، وتشير ماري باتسون إلى استخفاف النبلاء الإنجليز والملك إدوارد الأول نفسه من مكانة الزوج الثاني لابنته جوان الذي تزوجته سرًا عام ١٢٩٧م، وما جلبته على نفسها من خزي والدها الملك ولورداته الذين أحطوا من قدر ذلك الزواج عند إعلانه لكون الزوج لا ينتمي لطبقة اللوردات العظام[٢٨]. وبصفة عامة فثمرة الزواج السياسي رغم أنها جلبت الكثير من المتاعب للتاج الإنجليزي إلا أنها أثمرت في النهاية عن استقلال العرش الإنجليزي عن التاج الفرنسي قبيل حرب المائة عام.

نشأ الأدب الإنجليزي في عهد أسرة البلانتجنت في أحضان بلاط الأسرة الملكية؛ ومن ثم فقد خرج أول المفاهيم الأدبية عن الزواج منطوياً على فكرة التسلية والإمتاع العقلي[٢٩]، مع إنماء فكرة الحب المحرم بين المحبين الساعين للزواج. فقد وصفت ماري من فرنسا ومعاصريها أمثال كريتيان من تروي Chretien de Trois وأندرياس كابلانوس Andreas Capellanus ارتباط الزواج بالمحبوبة بالمكافأة التي يحصل عليها الفائز في مسابقة البرجاس[٣٠]. وفي هذا الاتجاه أيضاً قُدم الأدب التعليمي إلى جانب فكرة

---

[٢٥] مصطفى حسن محمد كناني، عصر اوفا ملك إنجلترا الانجلوساكسوني ٧٥٧-٧٩٦، (الإسكندرية، ١٩٨٦) ، ص٧٩.

[٢٦] Parsons,J. C., *Eleanor of Castile; Queen Society in Thirteenth -Century England* (New York ,1995), p. 7.

[٢٧] متي باريس، التاريخ الكبير، ترجمة وتحقيق: د. سهيل ذكار ، في ، الموسوعة الشامية ، جـ ٤٠، (دمشق ٢٠٠١)، ص٤٩٢.

[٢٨] Parsons, *Castile*, pp.39, 40; Bateson, *Medieval England*, p. 319.

[٢٩] يوهان هويزنجا، اضمحلال العصور الوسطى، ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد، القاهرة، ١٩٩٨م، ص١٢٥.

[٣٠] وترجح ايمي كيلي ان ماري من فرنسا كانت أختا غير شرعية للملك هنرى الثاني، وساقتها الظروف أن تنضم إلى الملكة الينور وابناءها في عصيانهم ضد أبيهم عام ١١٧٣م رغبة منها في أن تجد من يساندها في قضيتها واسترداد أراضيها المنهوبه على يد الملك هنري الثانى. وقد كتبت مارى في بلاط الينور عدداً من القصص الشعرية التى قصدت من خلالها معالجة بعض المفاسد المنتشرة في البلاط الإنجليزي. وكان من تلك القصص قصة القديسة أودري التى أنتشرت في الادب الانجلوسكسونى مرتكزة على حياة القديسة إثيلدريدا

التسلية والامتاع العقلى، حيث طرحت ماري فكرة الزواج الروحي، وامتدحت شكل العلاقة الروحية القائمة على التفاهم وعدم الاتصال الجنسي بين القديسة أودرى وزوجها الأول الملك تونبرت Tonbert، وأنتقدت في ثنايا نفس القصة قوة الرجال والأزواج لضغطهم على زوجاهتم بوصفهن العنصر المضطهد اجتماعيًا والممثل في الزوج الثاني الملك إيجفريث من يورك Ecgfrith of York الذي أساء معاملة القديسة وحاول اغتصابها عدة مرات(٣١). والملاحظ عمومًا في هذا الاتجاه أن الكتابات الأدبية الأولى – التي نمت في عرش محكمة الحب ببلاط البلانتجنت – هدفت بشكل أساسي إلى إثراء الجانب النفسي والعقلي بخيالات تبتعد عن واقع الحياة العامة.

St.Etheldreda ابنة ملك ايست انجليا East Anglia. التي ساقتها الظروف كما ذكرت ماري إلي الزواج مرتين؛ الأولى من الملك تونبرت والثانية من الملك ايجفريث من يورك. ورغم أن القديسة تزوجت مرتين إلا أنها ظلت كما ذكرت مارى على "عذريتها مخلصة في حبها للرب" حتى انتهى بها الأمر بالهرب من الزوج الثانى – الذي اراد أن يغتصبها – إلي دير إلي Ely . أما كريتيان من تروي فينتمي إلى نفس المدرسة الأدبية التي خرجت منها ماري من فرنسا، وكان واحد من الذين تتلمذوا على يد ماري وتعلم منها الكثير من ألوان الأدب الأنجلو– نورماندي في بلاط إلينور، فقد أخذ من مارى نفس طريقة المحاكة القصصية والمعالجة والأسلوب باستثناء الشخصيات القصصية التى اخذها كريتيان من جيوفرى من مونموث Geoffrey of Monmouth مؤلف كتاب "تاريخ ملوك البريتون *Historia Regum Britanniae* ". وله العديد من المؤلفات الادبية منها: " إيرك وإيدن *Erec and Enide*" و"لانسلوت *Lancelot"* و"يفين *Yvain* والكثير. إلا أن كريتيان لم يترك بصمة أدبية تميزه عن غيره أكثر من قصصه التى استوحى شخوصها من بلاط الملك أرثر حتى أن الفترة التى بدأ الكتابه فيها لاتزال غامضة عند الكثير من المؤرخين، فالراجح أن غالبية إنتاجه الأدبي كتبه في الفتره ما بين (١١٦٠ – ١١٧٢م) . أما اندرياس كابلانوس فيُعد أحد شعراء التروبادور الذين عاشوا حياتهم متنقلين بين بلاط الملكة الينور والملك الفرنسي. وعلى الرغم من صعوبة إثبات الفترة التى عاش فيها، فالراجح أنه كتب في القرنين الثانى عشر والثالث عشر. ومن أهم أعماله: "الملك مارك والشقراء ايزولت *King Mark and Iseult the Blond*"، و"الفارس والعربة الكارو *The Knight of the Cart* "، و"فن الحب العفيف *The Art of Courtly Love*"، و" ملوك الأجزاء *Kings of Parts* ". وقد كان اندرياس كغيره من شعراء التربادور الذين تأثروا بفن الموشحات الاندلسية، لكن كان أهم ما يميزه أنه استفاد من أشعار أوفيد ومن كتاب "تاريخ ملوك البريتون" لجيوفري من مونموث إضافة الى استفادته من الحرب الدائرة بين المسلمين والقشتاليين في الجنوب حيث برزت أشعاره تمتزج بالجنوح للخيال والرومانسية المطلقة . للمزيد أنظر :
Chretien de Troyes, *Eric and Endin*, ed. & tr. W.W. Comfort (London, 1913), pp. VII-IX ; Capellanus , A., *The Art of Courtly Love*, ed. & tr. J.J. Parry (New York , 1941), pp. 3-19; Mc Cash, J . H.," La Vie Seinte Aduree: a Fourth Text by Marie de France? ", *Sp* 77 / 3 (2002) , p. 744,; Kelly, A., Eleanor of Aquitaine and Four Kings , (New York , 1962), pp. 134 – 139; Finke, L. A., *Women's Writing in Medieval England* (London , 1999), pp. 155, 157; Salisbury, *Trials*, pp.39-44 .

(٣١) McCash, "La Vie", pp. 765, 766.

ومن الملاحظ أن نشأة الأدب الإنجليزي في البلاط على المثالية المجردة لم تحل دون النزول إلى معترك الحياة الواقعية، والتعامل مع مسألة الزواج بقدر من النصح والإرشاد للمقبلين عليه. كما أن أدباء ذلك العصر عولوا في القرن الرابع عشر على المزج بين الخيال والواقع في القصص لإبراز الحكمة والهدف المناط إبرازه من القصة. وفي هذا الصدد ظهر المفهوم الثاني للزواج في اتجاهين متوازيين: الأول؛ دعا فيه غالبية الكتاب إلى انتقاد القانون الكنسي الصادر عام ١٢٩٠م – والمذكور سلفاً – وتوجهوا بدعوة الآباء إلى وجوب أن يتزوج كل إنسان من طبقته دون إغفال الفروق الطبقية التي قد تؤدي إلى انهيار الحياة الأسرية مثلما ذكر إيولو جوتش Iolo Goch [٣٢] وفارس لاتور The Knight of La Tour من بعده. ويشير الأخير في كتابه – إضافة إلى تلك الدعوة – إلى الاتجاه الثاني من مفهوم الزواج؛ حيث عرض من خلال القصص الخرافي عددًا من التوجيهات تحض على الطاعة والخضوع لأوامر الزوج والعمل على راحته[٣٣]، كما لم ينس فارس لاتور أن يُذكّر ابنتيه بالفرق الشاسع بين تجارة الجسد، والاتصال الجنسي بين الزوجين، مؤكداً أن وجود المشكلات المالية أمرٌ طبيعي في الحياة اليومية للأسرة [٣٤].

---

[٣٢] قام انتوني كونران Anthony Conran بتجميع وترجمة عدد كبير من أشعار بلدة ويلز في كتابه Walsh Verse والذي اشتمل على الكثير من أشعار تلك البلدة بداية من القرن السابع وحتى منتصف القرن السادس عشر . وكان من بين تلك الأشعار "قصيدة بلاط اوين" التى كتبها الشاعر اولو، والتي –كما يشير الاستاذ انتونى– وصفت وانتقدت ما يحدث داخل وخارج بلاط كونت "كونى Conwy". للمزيد أنظر: يوهان هريزنجا ، اضمحلال، ص ١٢٤ – ١٢٦؛ Iolo Goch (c.1320-1398), The Court of Owain Glyndŵr at Sycharth, in: *Welsh Verse* ,tr. A. Conran (London ,1967), pp.13, 153-156.

[٣٣] كتب فارس أنجو حوالي عام ١٣٧٠م كتاب تعليمات ونصائح لابنتيه يحتوي على عددًا من القصص الخرافية تخدم الهدف التعليمي. ومن بين تلك القصص قصة تذكر أن الزوجة رفضت أن تأكل مع زوجها "لأنه يجب أن يأمرها بذلك"، وقصة أخرى لزوج كان يتعطر مع زوجته إلا أنها كانت دائمة الشجار معه. وقد ماثل فارس أنجو معاصرته كريستين من بيزان التي كتبت في نفس الفترة كتاب "مدبر المنزل الباريسي" التي عرضت فيه غالبية المتناقضات والنصائح والتوصيات التي قدمتها على لسان الرجل النبيل المسن، وفي أغلب الظن فقد اقتبست كريستين بعض الأوامر والتوصيات المذكورة عند فارس لاتور منها مسألة الخضوع التي ظهرت في قصة جريزيلدا الصبورة *Patient Griselda* وحضت –كما ذكر فارس لاتور– على اختيار الزوج المناسب من نفس الطبقة لأن المترملة دائمًا ما تواجه مشكلة اختيار الزوج ولذا فعادة ما تكون وحيدة مستوحشة كئيبة الفؤاد. للمزيد أنظر: Mitchell, R .J ., & Leys, M.D.R., *A History of English People* , (London, WD), p.180؛ إيلين بور، نماذج بشرية من العصور الوسطى، ترجمة : محمد توفيق حسين ، مراجعة د . نقولا زيادة و أخر ، بيروت ، ١٩٥٧، ص١٥٣–١٥٥

[٣٤] Karras, *Common Women*, p. 115.

ولم يعدم القرن الرابع عشر من ظهور اتجاهات أخرى لمفهوم الزواج جاءت كنتيجة طبيعية للمادية الطاحنة التي طغت على المعاملات الإنسانية، والتي يتضح أثرها من مبدأ المنفعة الذي ظهر عند وليم لانجلاند عند حديثه عن العروس لوكرLucre وزوجها الذي تزوجته لأجل المال وتزوجها هو لرغبته في الارتقاء بمكانته الاجتماعية بين اللوردات[٣٥]. وإن دل ذلك كما ذكر كولت مورفي Colette Murphy – على درجة الفساد الاجتماعي الحادث تحديدًا في بلاط إدوارد الثالث وعلاقة المنفعة التي ربطت بينه وبين لوردات البلاط بالحصول على المنصب أو المنح المالية مقابل الخضوع له[٣٦]. إلا أن ذلك الشكل النفعي – المنبثق من مفهوم الزواج السياسي السائد في أسرة البلانتجنت – امتد ليغزو الطبقات الأخرى الأقل نبالة، خاصة طبقة صغار ملاك الأراضي والطبقة البرجوازية، فوفقًا لما تشير اليه إيلين بور كانت خطبة الأطفال تتم وهم في سن مبكر، وأحيانًا ما كان يُعقد القران وهم لا يزالون في المهد ثم يُعاد عقده ثانية عند بلوغهم. وقد هاجم المعاصرون واللاحقون من الأدباء تلك الصور من الزواج من خلال عرض النماذج الهزلية من عقود القران التي تحدث في الكنائس كما في حالة جميس بللارد James Bellard البالغ عشرة أعوام وقت زواجه بجين

---

(٣٥) ولد وليم لانجلاند في عام ١٣٣٢م في بلدة شروبشير Shropshire التابعه لكلوبورى مورتيمر Cleobury Mortimer، وظل في تلك الاقطاعية حتى وفاته في نهاية القرن. وقد كان والده ستاس (إيوستاس) من روكيل Stacy (Eustace) de Rokayle تابعاً يعيش تحت حكم ديسبنسير Despensers في بلدة سيبتون Shipton بمقاطعة اوكسفوردشير Oxfordshire. ويرجح جوودريدج Goodridge أن وليم لانجلاند قد تلقى تعليمه في دير مالفرن الكبير Great Malvern وتدرج في السلك الكهنوتى حتى وصل إلى درجة قسيس؛ ومن خلال درجته الدينية استطاع الحصول على بعض الاقطاعيات الكنسية. ويرجح الاستاذ جوودريدج من خلال السجلات الرسمية أن كنية وليم لانجلاند المستخدمهفي تلك السجلات كانت لونج ويل Long Will وهو الرجل الكنسي البسيط الذي كان يعيش في كوخ كورنهيل Cornhill مع وزوجته كيت Kit وابنته نيكوليت Nicolette. وقد حاول وليم لانجلاند من خلال قصته "بطرس الفلاح *Piers the Ploughman* " أن يعكس صورة حية لحياته داخل بلدة شروبشير من خلال رسم صورة لشخصه في صورة بطرس الفلاح الذي نام تحت إحدى الأشجار في حقله فرأى السيده العذراء مريم في منامه بصورة سيدة متواضعة الحال تسأل عن سبب مظاهر الزينة الظاهرة في القرية فعرفت من بطرس أن سيدة القرية وتدعى السيدة لوكر Lucre تستعد للزفاف على السيد هوكين Haukyn، ويستطرد وليم لانجلاند في وصف علاقة المنفعة المتبادلة بين السيدة لوكر وزوجها. للمزيد أنظر : Langland, W., *Pier the Ploughman*, tr. J.F. Goodridge (London, 1959), pp. 8-15, 76, 77.

(٣٦) Murphy, C., "Lady Holy Church and Meed the Maid: Re- Envisioning Female Personifications in Pier Plowman", in: *Feminist Readings in Middle English Literature; the Wife of Bath and all Her Sect*, ed. R. Evans & L. Johnson (London, 1994), pp. 152-154.

Gean[٣٧]. وقد حاول الشاعر جيوفري تشوسر في قصة "مالك الأرض والفارس" المزج بين إظهار الزوج حبه لزوجته وقدرته على التحكم في أرضها[٣٨]. وبصفة عامة فإن كان الجسر الرابط بين الأزواج هو صلة المنفعة المادية سواء بحصول أحد الطرفين على ما لدى الأخر كما في سيرة مارجري كمب Margery Kemp وخطابات مارجريت باستون Margert Paston في منتصف القرن التالي[٣٩]– إلا أن المفهوم الجنسي للزواج والمرتبط بجمال وفتنة

---

(٣٧) ذكرت أيلين بور أن قصص الزواج امتزجت فيها الفكاهة بالسخرية والنقد الإجتماعي، ومن تلك القصص قصة الطفل يوحنا ريجماردن John Regmarden البالغ ثلاثة أعوام والذي حضر بين ذراعي القسيس الذي كان يحثه على تلاوة عقد الزواج ولكن الطفل أعلن في منتصف الحفلة أنه لا يريد أن يتعلم أكثر مما تعلم. وكذلك حالة جيمس بللارد الذي رغب أن يكمل اللعب مع زوجته جين التي بلغت سن الزواج وقت تلاوة القداس وفي الليلة الأولى من زواجه طلب المذكور جميس وهو يبكي الذهاب للنوم في منزل والدته لأنه انتقل لمنزل أخو جين بعد إتمام مراسم الزواج.. للمزيد انظر: أيلين بور، نماذج بشرية، ص١٨٨، ١٨٩.

(٣٨) ولد جيوفري تشوسر في حوالى عام ١٣٤٠م ويعود نسب جيوفري تشوسر إلى والده يوحنا وجده روبرت اللذان –كما يظهر في سجلات اتحاد الخمور– كانا يعملان في مجال سقاية الخمور للأسرة الملكية في مدينة سوسمبتون Southampton . وقد تلقى جيوفرى تعليمه في مدرسة القديس بولس St.Paul وبعد أن أكمل دراسة المواد الاساسية انتقل للعيش في بيت كونتيسة اولستير Countess of Ulster زوجة الكونت ليونيل Lionel، الابن الثالث للملك إدوارد الثالث، وعند بلوغه أُرسل للعمل كساقى في بيت يوحنا من جنت. وفي عام ١٣٥٩م تم ارسال جيوفري تشوسر بشكل خاطئ كجندى للحرب ضد فرنسا أثناء حرب المائة العام، وخلال تلك الحرب أُسر وأُقتيد إلي أحد السجون الفرنسية بالقرب من ريمس Rheims . ويرجح الأستاذ كوجيل Goghill أن تشوسر استفاد كثيرا خلال فترة حبسه – التى أمتدت حتى ١٣٦٧م– حيث تعرف على القصص الفرنسية المنتشرة، ومنها: قصة "الحب العفيف *Amour Courties*" و"رواية الزهرة *Roman de la Rose* " للشاعر وليم من لوريس Guilaume de Lorris. وبعد عودته إلى إنجلترا بدأ يكتب تشوسر العديد من المؤلفات الشعرية ومنها كتاب " حكايات كانتربورى *The Canterbury Tales*" الذي احتوى عدة قصص لشخصيات من مختلف الطبقات الاجتماعية منها: "حكاية فارس *Knight`s Tale*" و"حكاية مالك الارض *Franklin`s Tale*" وقدم خلالهما صورة لذكاء الأزواج في تملق الزوجات من أجل الاستفادة المادية بالتحكم والتحكم في أملاكهن. للمزيد أنظر : Chaucer, G., *The Canterbury tales*, tr. N . Coghill (Middlesex , 1962), pp. 9-13.

(٣٩) تولى هنري السادس (١٤٢٢–١٤٦١م) حكم إنجلترا تحت وصاية يوحنا دوق بيدفورد بعد وفاة والده الملك هنري الخامس وقد أدى انكسار الجيش الإنجليزي وسقوط بوردو عام ١٤٥٣م في يد الفرنسيين أثناء حرب المائة عام إلى قيام ثورة يترأسها رينشارد دوق يورك للمطالبة بالحكم على أساس أنه من سليل أبناء إدوارد الثالث وهذا أدى إلى انقسام المملكة الإنجليزية وحدوث حرب أهلية عرفت بحرب الوردتين قتل على أثرها رينشارد وتولى ابنه إدوارد الرابع متابعة جهود والده وفي تلك الحرب لمع نجم يوحنا باستون دوق نورفولك قائد المنطقة الشرقية التابع لإدوارد الرابع وقد تزوج الدوق المذكور يوحنا باستون في عام ١٤٤٠م مارجريت ابنة يوحنا موتبي John Mauteby والتي أدارة في أثناء غيابه في الحرب لولاية نورفولك وكتبت عددًا من

الأنثى جاء مكملاً لتلك الرؤية المادية التي استخدمها الابُاء أعداء الزواج لقصر فهم العلاقة الأسرية على تلك الزاوية.

وعند عرض الاتجاه الرابع للمفهوم الأدبي للزواج يجب أن نذكر أن الأدب الإنجليزي في القرن الرابع عشر تعرض لعدة عوامل أثرت على ظهور المفهوم الجنسي الممتزج بالمنفعة المادية، ويأتي على رأس تلك العوامل – المتداول ذكرها على ألسنة طبقة النبلاء والمثقفين والعامة في البلاط الملكي– تعدد العلاقات الجنسية بين أعضاء البلاط وأهل البيت الملكي وحتى الملوك والملكات منهم طوال القرن الرابع عشر تقريبًا، مما أدى إلى خروج فئة أنصاف الكهنة من الأدباء الذين انتقدوا الخيانة الزوجية وضعف عقول الشيوخ من الرجال الشغوفين بغرام العذارى، وانتقدوا الفتيات اللائي يقعن في غرام كبار السن. ومثلت محكمة الملك آرثر وفرسانه الوعاء الوحيد الذي أفرغ فيه تلك الفئة المعاني المذكورة، خاصة أنها جاءت واصفة وناقدة في الوقت نفسه لكل ألوان مفاسد الطبقة الحاكمة(٤٠).

الخطابات إلى زوجها تتضمن جميع ما يدور من أحوال اللوردية سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية، وكان من بين تلك الخطابات خطابًا يتعلق بعرض الزواج الذي قدمه اللورد يوحنا على مدام باستون ليتزوج ابنتهما البالغة ثمانية عشر عامًا وكذلك خطابات تصف علاقة الحب الغير متكافئ بين بلوميتون plumpton القائم بالأعمال التجارية ومارجري أصغر أخوات يوحنا باستون. للمزيد انظر: *The Paston Letter*, tr.J. Warrington, Vol. I, London, 1966, pp.VI-IX, 233-239; Mitchall & Leys, *People*, pp. 178-179; Salisbury, *Trials*, pp. 15-20; Delany, S.,"Sexual Economics, Chaucer`s Wife of Bath" in : *Feminist Readings in Middle English Literature, the Wife of Bath and All Her Sect* , ed. R. Evans & L. Johnson (London, 1994), pp. 82, 83. سعيد عبد الفتاح عاشور، أوربا العصور الوسطى، جـــ ١: التاريخ السياسي ، (القاهرة ، ١٩٥٨)، ص٤٥٢، ٤٥٣.

(٤٠) تأثر البلاط الملكي الإنجليزي بفكرة الحب المحرم المذكور في محاكم الحب وقد تركت أصداء الكتابات الفرنسية والإنجليزية في القرن الثاني عشر أبلغ الأثر في ممارسة ذلك النوع من الحب خاصة في بداية عهد إدوارد الثاني الذي اشتهر بعلاقته الجنسية مع إحدى السيدات الفرنسيات وبالمثل كانت زوجته إيزابيلا التي أقصته بمعاونة عشيقها روجر من مورتيمر وبعد انقضاء عهد إدوارد الثاني استمر تأثير تلك المحاكم في مخيلة الخرف العجوز إدوارد الثالث الذي اشتهر بعلاقات عشق وغرام مع كونتيسة سالزبوري وأليس بريرز وكذلك كان ابنه يوحنا من جنت الذي أطال في أمد علاقته مع كاثرين من سوينفورد التي أنجب منها ابن الزنى الابن هنري الذي تولى عرش إنجلترا بعد ذلك باسم هنري بمبروك. وقد تأثر أدباء ذلك العصر بكل ما يجري في البلاط ولذلك استعادوا محكمة الملك أرثر وفرسانه وأعادوا تقديم فرسان المحكمة في عدة قصص منها السيد أورفيو والسيد جوين والفارس الأخضر ولانسلوت لكن معالجة الدائرة في البلاط الملكي لم يقتصر على استعادة شخصيات الفرسان لكن ظهر لون آخر أرق في التعبير ويميل إلى النزعة الرمزية التصوفية في عرض المغزى القصصي المتصل بالبلاط عن طريق يوحنا جوار الذي عرض في اعترافات أمنيتس Amantis تخيل العلاقة الزوجية بين الملك إدوارد الثالث وزوجته في ظل تعدد علاقاته النسائية؛ للمزيد انظر: Middleton, A.,

وفي الوقت الذى يعد آداب فئة أنصاف الكهنة الناقد لمفاسد الطبقة الحاكمة القنطرة الأولى التي انعكس من خلالها مفهوم الزواج الأدبي الجنسي، تمثلت القنطرة الثانية في قصة "الوردة" – لجيوم دى لوريس المكتوبة في القرن الثالث عشر – التى هاجمت الحب المحرم والخيانة، ودعت في الوقت نفسه إلى قمع الرغبة الجنسية وتحقير العذارى[٤١] كخطوة لنقد استغلال الأنثى لرغبة الرجال في مجتمع أصبحت فيه المادة هي السيد والمعبود. فمن الرمزية في التعبير عند جيوم إلى الواقعية في التصوير عند ديفيد آب جويلم وجيوفري تشوسر ومارجري كمب والسير بني Sir Penny[٤٢] ظهرت الرؤية الجنسية للزواج لتنتقد رغبة نساء الطبقات المتوسطة والفقيرة في البحث عن الثراء أو المتعة بل وإيجاد مبررات وهمية تتفق مع المفاسد الاجتماعية من انتشار تعددية الزوجات عن طريق رفض وصية القديس بولس (٧ : ٢) وطرح التعددية محل الزنا في الخفاء كوسيلة للحفاظ على عفة الأرمل أو الأرملة كما عكست "الزوجة من باث" *Wife of Bath* [٤٣]. لكن تلك الرؤية أُستخدمت

"The Idea of Public poetry in the Reign of Richard II", *Sp* 53/1 (1978), pp. 101-110; Salisbury, E, *Trials*, pp. 15-20.

(٤١) في نهاية القرن الثالث عشر كتب الشاعر الفرنسي جيرم ده لوريس قصة الوردة مستخدمًا الفراغ والمرح والحب والجمال والثروة والجود والصراحة والكياسة والشباب وغيرها من الخصال عناصر متحركة أو شخوصًا طارق بهم باباً جديدًا من أبواب محكمة الحب تجسد فيها التضحية والفناء والموت سبيلاً لأجل الوصول إلى "البتوله او العذراء" التي تدان في نهاية القصة لأنها أغرت الحب بالهجوم لإقامة العلاقة معها. وقد ترجمت تلك القصة إلى العديد من اللغات في القرن الرابع عشر في جميع أرجاء أوروبا من روعة أسلوبها وجمال شخوصها وأشار الأستاذ يوهان هويزنجا أنها أثارت من خلال النبرة الرقيقة نزعة الكره للنساء وأنانية الرجال كما ألقت اللوم على مظاهر الحب بكل نواحيه بوصفه الخطيئة التي يتم بها تدمير العالم. للمزيد انظر: يوهان هويزنجا، اضمحلال، ص١١٢–١٢٦ .

(٤٢) انتشرت في بداية القرن الخامس عشر بإنجلترا أنشودة "السيد بني" الذي دعى فيها إلى تحقير رغبة الأنثى في ظل قوة الرجال مستندًا في ذلك إلى نص القديس بولس بأن "الرجل هو رأس المرأة" (إف ٥: ٢٣) وصور بني جانبًا من رغبة الرجال بالنساء ورغبة النساء بالمال من خلال عرض صورة العذراء التي خسرت عذريتها مقابل المال وكوب من الجعة قدمه لها البطل في الحانة؛ للمزيد انظر: Karras, *Common Women* , pp.91-94.

(٤٣) عول تشوسر في ثنايا حديث أليس من باث على نقد وصية القديس بولس (٧: ٢) مشيرًا بأن السيد المسيح نصح ولم يوصي، كما أوضح الرغبة الجنسية لدى حسناء باث على مستويين الأول جاء من خلال ذكر رغبتها في الحفاظ على طهارتها في ظل التقيد بالزواج، والثاني من خلال ذكر خصال أزواجها الخمس التي رسمت ثلاثة منهم بحسن المعاشرة لأنهم كبار في السن فمنحوها الأموال ولم تكن حساء باث كما تذكر شيلا دلني قد بنت مذهبها على سلب الروح مقابل المادة؛ للمزيد انظر: Chaucer, *Tales*, pp.275-281; Delany, "Sexual", pp. 73-75.

أحياناً بشكل رمزي كدلالة على العجز الذكوري في إشباع رغبات الأنثى ماديًا أو جسديًا. وقد رجحت إيف سالزبوري أن تلك الرؤية الرمزية الموجوده في حكاية مالك الأرض *The Franklin`s Tale* عند تشوسر مقتبسة في الأصل من الشاعر الاسكتلندي دونبار Dunbar الذي كتب في أوائل نفس القرن(٤٤)، لكن المتتبع لخط سير الكتابات الأدبية عند الشاعر الإنجليزي تشوسر وسيرته الذاتية يجد التماذج الفريد بين الواقعية بتصوير الجاري في بلاط يوحنا من جنت وعلاقته بكاثرين من سوينفورد Catherine de Swynford ومادية الحياة الطاحنة التي فرضت على بعض أبناء الطبقة النبيلة بيع أنفسهم عن طريق الزواج السرى أو الزواج بالنساء الأرامل الثريات(٤٥).

وعلى أية حال؛ إذا كانت الرؤية الجنسية المرتبطة بالمادية حملت في طياتها الهجوم على النساء عامة والخادمات العاملات بالنسج أو صناعة الخمور خاصة –كما ترى أيف سالزبوري(٤٦)– إلا أن الهدف الأعم والأشمل هو إرساء الجانب التعليمي من خلال عرض المتناقضات الاجتماعية بدرجات وصور شتى، وإن اختلطت الصورة الدينية لكارهي الزواج مع تلك الرؤية الأدبية. وقد ظلت الرسالة التعليمية أساسًا يشير إليه أغلب الأدباء في نهاية القصة مثلما أشار تشوسر في حكايات متعهد المؤونة *The Manciple`s Tales*، وأوضحه كذلك غالبية أدباء ذلك العصر في ثنايا قصصهم؛ أمثال وليم لانجلاند والشاعر المجهول في قصص السيد جوين والفارس الأخضر والسير أورفيو(٤٧). والمتتبع للمفهوم الأدبي للزواج يجد أن التطور من الرمزية في الحب المحرم في القرن الثاني عشر رسخت في الأذهان وجوب الدعوة للموائمة الطبقية بين المتزوجين في القرن الرابع عشر، تلك الدعوة التي فتحت الطريق للمزج بين الواقعية والرمزية – في نفس القرن – لنقد الأحداث الجارية في البلاط الملكي والتوجه بشكل مباشر لإبراز أهمية الاستفادة المادية عند الزواج بين أبناء الطبقة الواحدة، سواء في البلاط الملكي أو في الطبقات الأقل نبالة أو حتى في الطبقات الدنيا.

ويأتي المفهوم الرابع للزواج من خلال الرؤية الشعبية التي يمكن رصدها عن طريق ذكر بعض ما جاء في الأعراف المتداولة في المخطوطات أو الأغاني الشعبية أو النكات أو من خلال القضايا التي رصدت جانبًا كبيرًا من التصرفات أو الممارسات المعتادة بين العائلات. وبصفة عامة فالمفهوم الشعبي للزواج خرج في ثلاثة اتجاهات متباينة تمثل إما

---

(٤٤) Salisbury, *Trials*, p.p. 17-20.

(٤٥) Karras, *Common Women*, pp. 92, 93; Chaucer, *Tales*, pp. 9-11.

(٤٦) Salisbury, *Trials*, pp. 25-30.

(٤٧) Karras, *Common Women*, p.12; Salisbury, *Trials*, pp. 15-22.

شرحًا عملياً لمبدأ المنفعة المادية – السالفة الذكر– في الجانب الأدبي، أو تمثل انعكاسًا للنظرة الأدبية أو الدينية من خلال التصور العملي لصورة الزوجة في المنزل، وذلك كما هو الحال في أعراف كونتية ويلزWales التي استمرت خلال القرن الثالث عشر وأحتوت بشكل ضمني على احترام الزوجات من خلال عقود زواج السبع سنوات والذي فرض على كلا الزوجين احترام الآخر، بل استفاض شارح القانون الويلزي دافيد جنكينز Dayfydd Jenkins في وجوب اقتسام المهام المنزلية وفق التوصيف المجتمعى الجنسي للأدوات المستخدمة في الحياة اليومية، فالرجل كان ينخل بالغربال الجزء الخشن من الدقيق بينما تنخل المرأة بالجزء الناعم منه، والزوج يربي الخنازير والزوجة تربي الخراف. ويظهر إعلاء قدر الزوجه في ويلز بوضوح من خلال الاعتذار الذي كان على الزوج تقديمه لزوجته بعد انقضاء فترة العقد وحصوله على أغطية السرير التي ستتام عليها زوجته الثانية، كما أن عرف ويلزWales أباح أن يتم تقاسم المنقولات بين الزوج والزوجة حتى في حالة النساء اللائى تزوجن بدون تصريح من أقاربهن بعد انقضاء العقد(٤٨). ولم يقتصر إعلاء قدر الزوجة على ويلز فقط؛ ففي القرن الرابع عشر نددت " أنشودة الزوج المستبد *Ballad of Tyrannical Husband* " بقسوة معاملة الزوج غير المقدر لخدمات الزوجة في المنزل، وفي نفس القرن تقريبًا ظهرت القصيدة الشعبية "مُؤَلف الزوجة العفيفة *The Writght's Chaste Wife*" التي حصرت نظرة الاحترام للزوجة من خلال الدخول في اتفاقيات متكافئة في المهام المنزلية بين الزوجين قبل إتمام الزواج وعولت على وجوب حسن المعاملة والاحترام بين الطرفين.

وفي نفس القرن ظهر الاتجاه الثاني الذي يسفه الرجال من الناحية الجنسية في القصيدة الشعبية "حديث العشر زوجات عن سلع أزواجهن *A Talk Ten Wives on Their Husband's ware*" متخذين من كلمة السلع الدالة على التبادل التجارى بالسوق وسيلة لما يجب أن يدفعه الأزوج مقابل معاشرة زوجاتهن؛ حيث صُورت المعاشرة الجنسية كسلعة تُباع وتُشترى في الأسواق. وقد سخر كاتب القصيدة من الأزواج والذكور عمومًا الذين يدعون تميزهم عن الإناث. وترجح إيف سالزبوري أن واحدة من تلك النساء هي التي كتبت القصيدة، حيث ركزت على تفقد الشابات المراهقات لجسد الذكور وقت المعاشرة في غرفة النوم، إضافة إلى المعاملة المهينة التي تعاني منها الزوجات في المنازل.

ويمثل الزواج خطوة في الاستقلال الاقتصادي والاجتماعي والسياسي داخل الاتحادات القروية والنقابات العمالية، فمن خلال عرض حجم المكاسب الاقتصادية والسياسية

---

(٤٨) Stacey, " Divorce", pp. 1110-1117.

التي حصل عليها هنري بطرس كوكس Henry Peter Cocus من جراء مصاهرة هنري كرويل –في الربع الثاني من القرن الرابع عشر– باتحاد مزرعة بريجستوك [٤٩] يمكن دراسة الاتجاه الثالث للمفهوم الشعبي عن الزواج، حيث أرجعت أيلين بور أن السبب الرئيسي في انتشار زواج الأطفال هو رأب الصدع بين العائلات أو فض الخصومات[٥٠]. إلا أن العامل الأهم والأساسي يأتي متفقًا تمامًا مع المفهوم الثالث الأدبي في حجم الاستفادة المادية والمنفعة الاقتصادية لكلا الطرفين، وعلى ضوء ذلك المفهوم سجلت غالبية الحوليات والمخطوطات الحكومية وسجلات القضايا عددًا من حالات الزواج التي رسخت ذلك المفهوم جيلاً بعد جيل سواء في الريف أو المدن. وقد استوعبت المؤسسة الكنسية ذلك؛ لذا أطلقت يد ذكور العائلات لإعطاء الموافقات المتبادلة بين الطرفين، خاصة في زواج أو خطبة الصغار خاصة في الطبقات النبيلة منذ بداية القرن الثالث عشر تقريبًا[٥١]. وتشير إيلين بور إلى اعتياد الوالد وحرصه على الاطمئنان على مستقبل ابنته عند الإقدام على قبول عرض زواج مناسب [٥٢]. وفي هذا السياق سجل كتاب "تاريخ الشعب الإنجليزي" في القرن الرابع عشر رفض السيد وليم بلومبتون Sir William Plumpton العرض المقدم لزواج أخته من أحد تجار أقمشة بلدة تشابسيد Cheapside بمقاطعة نورفولك لأنه لكونه صغير لا يستطيع الإيفاء بالالتزامات أو الواجبات التى يتضمنها صك الزواج[٥٣]. ونظرًا لأهمية الموائمة بين الطبقات والعمل بمبدأ المنفعة المتبادلة حذر لوردات المزارع في القرن الرابع عشر الوالدين من ترتيبات الزواج غير المناسبة، بل تصادف في بعض الأحيان أن منح اللوردات وصايا الفتيات الصغار مع الموافقة على الزواج إلى أوصياء باتحاد القرية –غير متزوجين– مناسبين للزواج بهن[٥٤].

ونتيجة لترسيخ ذلك المفهوم المادي النفعي مع حضور موافقة الوالدين، بدأ يظهر في الأفق نوع جديد من أنواع الزواج يمكن أن يُطلق عليه "زواج المخطوفة"؛ والذي يمكن حصر العديد من حالاته في سجل تراخيص الزواج بالمحاكم في الفترة ١٣٢٥–١٣٨٠م،

---

(٤٩) Bennett, J.M., *Women in Medieval English Countrysides* (Oxford, 1987), p. 58.

(٥٠) أيلين بور، نماذج بشرية، ص١٨٨.

(٥١) Salisbury, *Trials*, pp. 9-11.

(٥٢) أيلين بور، "مركز المرأة"، ص٥٨٢.

(٥٣) Mitchell & Leys, *People*, p. 141.

(٥٤) Clark, E., "The Custody of Children in English Manor Courts, *LHR* 3/2 (1985), pp. 338-340.

حيث أُتهم والده الشاعر الإنجليزي تشوسر يوحنا في بداية الفترة المذكورة باختطاف جوان القريبة له عن طريق عمته أجنيس من ويستال Agnes de Westhale والمنتمية لعائلة ستاس Stace، لأنه رتب للزواج منها والدخول في اتحاد مع ملكياتها. وحوالي عام ١٣٧٨م أتهم السيد وليم بوشامب William Beauchamp ويوحنا من بفريل John de Beverle الشاعر جيوفري تشوسر نفسه بتورطه في اختطاف سيسليا شامبني، وإن تم تبرئته في عام ١٣٨٠م، وإن لم يشر المخطوط لأسباب تبرئته [٥٥].

ورغم تلك المادية الطاحنة الدامغة على الأذهان إلا أنه يمكن تلمس لمحة من الحب والوفاء في مخطوطة سجلات الجرائم بكلندارCalendar بلندن في حالة وليم كوينتين William Quyntyn البالغ من العمر ٥٤ عامًا، والذي عاش اثني عشر عامًا مع عشيقته ثيفانيا Thephanie، وتزوجا عام ١٣٠٦م وتوفت في العام التالي وظل على ترمله مخلصًا لحبها[٥٦]، أو كحالة النبيل العجوز وليم فيكنس William Thiknes البالغ من العمر سبعين عامًا، والذي أعلن في سجلات مزرعة هيوود Heywood التابعة لبلدية لندن وقت زواج ابنته عام ١٣٧٨م أنه تزوج زوجته إليزابيث كان [كويني Coyny] Elizabeth Cane بناء على رغبته الحرة، وكان عمره وقتها اثنى عشر عامًا بينما كانت تبلغ هي الثماني أعوام، وعاشا معًا ثلاثين عامًا على الحب والاحترام المتبادل[٥٧]. ومن كل ما سبق يمكن القول أن المفهوم الشعبي للزواج يعد بوتقة المفاهيم الذي صب فيه غالبية الأدباء والسياسيين ورجال الدين أفكارهم عند النظر للزواج، وإن لم يعن ذلك حكمًا عامًا لكن القصائد الشعبية فندت وراجعت تلك المفاهيم، سواء كانت سياسية أم دينية أم أدبية، لتخرج بآداب تتلائم مع الأحاسيس والمشاعر النابضة في الحياة العامة في الشارع الإنجليزي.

وبشكل عام؛ فالدارس لمفهوم الزواج في إنجلترا يجد أن الشعب الإنجليزي على مختلف طبقاته تفهم الزواج بطريقتين متناقضتين، الأولى: كونه سرًا مقدسًا يربط بين اثنين ليكونا جسدًا واحدًا كما في المفهوم الديني، والطريقة الثانية من خلال المنفعة العائدة من وراء الزواج، وإن ساعدت سياسة ملوك أسرة البلانتجنت على إنماء تلك النزعة في الجانب السياسي تحديدًا. وجاءت تلك النظرة وبالاً على أبناء الطبقات الثرية في المدن حيث اعتاد

---

(٥٥) Chancery Warrants (Internal), fol. 1731/1767, Public Records, in: *Chaucer's World*, Rickert *et.al* (New York, 1948), pp. 54-55.

(٥٦) *Calendar of Inquisetions Post Mortum and Other Analogous Documents*, ed.Publice Record Office, vol.V, No.67 (London, 1908), p. 36.

(٥٧) Coulton, G. G., *Medieval Panorama, the English Scene from Conquest Reformation* (New York, 1944), pp. 630-631.

أقرانهم على اختطاف الأبناء والبنات الصغار لأجل إتمام الزواج الذي يتفق مع مصالحهم الاقتصادية في المدينة، ولعل هذا يدل بصفة عامة على مدى إلتصاق الحكام بالمحكومين بشكل جعلهم ينفرون حتى من مجرد التشبث بمفاهيم أو تصورات المؤسسة الكنسية التي كانت تابعة في أغلب تاريخها للمؤسسة السياسية ممثلة في الملك رأس الدولة، ولورداته الممثلين لأطراف الحركة السياسية في الحياة العامة.